

سلسلة مواقف مضيئة في تاريخ الإسلام

الحلقة الثانية عشرة

أحد علّمت الأمة أن الطاعة حياة وليست قياداً

أحد ليست صفحة هزيمة، ولا لحظة انكسار في مسيرة الدعوة، بل محطة تربية عميقة في مدرسة النبوة. هي معركة كشفت سنن النصر، وأظهرت أن البناء الحقيقي للأمة لا يقوم فقط على الشجاعة والإيمان، بل على الطاعة المنضبطة، والالتفاف حول القيادة، والثبات عند الاختبار.

بعد بدر، كان النصر واضحاً، وارتفعت المعنويات، وتبدلت موازين الهيبة. لكن أحد جاءت لتؤكد أن النصر ليس رصيماً دائماً، بل أمانة تحتاج إلى حفظ، وأن الاستمرار في التمكين مشروط بالانضباط. خرج المسلمون إلى أحد بعد مشاورة، وكان رأي النبي ﷺ في البداية البقاء في المدينة والتحصن بها، لكن الغالبية رأّت الخروج. وبعد أن حُسم القرار، مضى النبي ﷺ دون تردد. هنا يبرز أول درس: الشورى باب للرأي، لكن بعد الحسم والعزم من جانب صاحب الصلاحية، لا يبقى إلا الالتزام.

في أرض المعركة، وضع النبي ﷺ خطة دقيقة: خمسون رامياً على الجبل، مهمتهم حماية ظهر الجيش ومنع التفاف قريش. كانت التعليمات واضحة لا تحتمل تأويلاً: "لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا انتصرنا أو انهزمنا". هذا النص ليس مجرد توجيه عسكري، بل تأسيس لثقافة الطاعة في المعروف، والانضباط خلف القائد.

بدأت المعركة، ومالت الكفة لصالح المسلمين، وظهرت بوادر النصر. عندها وقع الاختبار الحقيقي: هل يبقى الرماة في مواقعهم التزاماً بالأمر؟ أم ينزلون بدافع الظن أن المعركة انتهت؟ غلب على أكثرهم تقدير اللحظة، فنزلوا، وبقي قلة على الجبل. هنا انكشفت الثغرة، فاستدار خالد بن الوليد - وكان آنذاك في صف قريش - بفرسانه، وضرب من الخلف، فتبدلت المعادلة.

لكن أحد لا تُقرأ كإدانة لجيل الصحابة، بل كدرس حيّ في أثر مخالفة القيادة ولو بحسن نية. القرآن علّق بوضوح ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾. الفشل والتنازع والعصيان كانت مفاتيح التحول، لا ضعف العقيدة ولا قلة الإيمان.

ثم جاءت لحظة أخرى تكشف معدن الأمة: حين أشيع أن النبي ﷺ قد قُتل. هنا تمايز الصف. بعض الصحابة جلسوا وقد ألقوا السلاح، وبعضهم قال: "ما تصنعون بالحياة بعده؟" وقاتلوا حتى استشهدوا، ومنهم أنس بن النضر رضي الله عنه. وحين ثبت أن النبي ﷺ حيّ، التفّ حوله ثلة من خيرة أصحابه يحمونه

بأجسادهم ويجعلون صدورهم دروعاً دونه. أبو دجانة ينحني بجسده لتقع فيه السهام، وطلحة بن عبيد الله تشلّ يده وهو يدافع عنه.

هنا يتجلى درس الفداء والولاء: القيادة ليست منصباً إدارياً، بل موقع أمانة يُحمى، لأن بقاء المشروع مرتبط ببقاء رأسه. حماية القائد في أحد لم تكن تعصباً لشخص، بل إدراكاً أن وجود القيادة ضرورة لاستمرار الدعوة ووحدة الصف.

ومع كل ما جرى، لم تتحول أحد إلى انهيار. لم تتفكك الجماعة، ولم يُعزل القائد، ولم يُفتح باب الاتهامات. بل خرج النبي ﷺ في اليوم التالي إلى حمراء الأسد، رغم الجراح، ليؤكد أن الكبوة لا تعني التراجع، وأن الصف يُرَمَّم بالثبات لا بالتشكيك.

إذا نظرنا إلى واقع الأمة اليوم، نجد أن كثيراً من المشاريع تتعثر لا لضعف فكرتها، بل لغياب الانضباط، وتعدد مراكز القرار، وتقديم التقدير الشخصي على الخطة العامة. حين يتحول كل فرد إلى قائد مستقل، تتسع الثغرات. وحين يضعف الالتزام بالطاعة في المعروف، يُفتح الباب للفوضى، حتى لو لبست لباس الحماسة.

كما أن مخالفة التوجيهات بدافع استعجال النتائج أو البحث عن المكاسب السريعة قد تُكلف الأمة أثمناً كبيرة. أحد تعلمنا أن النصر لا يُستكمل إلا بحراسة داخله من التفلت والانقسام. وأن الخطأ مهما كان محدوداً إذا وقع في موضع حساس، قد يغيّر مسار المشهد كله.

لكن الدرس الأهم أن الخطأ لا يُنهى المسيرة، بل يُصحح، ويُعالج، ويُحوّل إلى وعي أعمق. أحد لم تُلغِ بديراً، ولم تمنع الفتح بعد سنوات، بل كانت محطة نضج. كشفت للأمة أن الطاعة في المعروف ليست قيماً، بل صمام أمان. وأن الالتفاف حول القيادة الواعية والثقة في قراراتها ضرورة لبقاء المشروع. وأن الفداء ليس اندفاعاً عاطفياً، بل تعبير عن فهم عميق لوحدة الهدف.

أحد إذن ليست قصة ألم، بل قصة تربية. ليست صفحة هزيمة، بل مرآة تُظهر أن الأمة تقوى حين تضبط صفها، وتحفظ طاعتها، وتصون قيادتها. ومن لم يتعلم هذا الدرس، قد يكرر الثغرة ذاتها في كل زمان.

نسأل الله أن يحفظ لنا قادة الخير وأن يتم على أيديهم فتكون الخلافة الثانية الموعودة راشدة على منهاج النبوة.

المكتب الإعلامي لحزب التحرير

في ولاية مصر